التربية بين الغزو الفك

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فان التربية الاسلامية هي الاساس القوي الذي يقوم عليه بناء الفرد المسلم ، الملتزم بآداب دينه ، القادر على ان يندفع بهذا الدين في البشرية كلها يبلغها دين الحق في كل زمان ومكان ليخرجها به من الضلال الى الهدى ومن الظلمات الى النور .

بل ان التربية الاسلامية هي الاساس المتين الذي تقوم عليه الحضارة الاسلامية كلها ، الحضارة الاسلامية بكل معطياتها في الفكر والمبدأ ، والقول والعمل ، والخلق والسلوك ، والمنهج والنظام ، والحياة الانسانية السعيدة الراشدة الناجحة في الدنيا والآخرة ، ان التربية الاسلامية بحق هي أساس هذه الحضارة .

وما من منصف من الباحثين أو المثقفين يستطيع أن ينكر فضل الحضارة الاسلامية على العالم كله قرونا عديدة من الزمان ، أو أن ينكر أن هذه الحضارة الخصبة الحية كانت هي الاساس الذي بنى عليه الاوروبيون أفضل مافي حضارتهم وأهمه .

الإسلامية
والتيارات المعادية

● الدكتور علي عبد الحليم محمود

وليس من الانصاف أن نتجاهل حضارة الغرب التي تختلف عن الحضارة الاسلامية في كثير من معطياتها في الاخلاق والسلوك والوسائل والاهداف ، تعمل جادة على أن تقف للتربية الاسلامية وقفة العدو الحاقد وان استطاعت بمزيد من المهارة في التمويه أن تخفي هذه العداوة في القشور البراقة الخادعة ، والكلمات المعسولة ، والنظم والمناهج التي تبدو كما لو كانت بريئة مسالمة ·

ان اغراق المسلمين في كل مكان في لجج من النظم والمناهج التربوية الغربية ليستهدف تحويل ناشئة المسلمين عن أن يشبوا في ظلال التربية الاسلامية التي تستمد كيانها وأسسها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأخلاق الصحابة رضوان الله عليهم ، ليتحولوا ـ وهم في سن الرشد ـ عن نهجهم ونظامهم ودينهم ، فيظلوا دائما أتباعا لما شبوا عليه ·

جولة حول مفهوم التربية :

كلمة التربية بمفهومها الذي يتبادر الى الاذهان أقدم في اللغة العربية منه في اللغات الاخرى ·

تلك قضية نطرحها في مستهل البحث لنوقظ بها عقول من يدعون أن التربية بمفهومها المعروف نتاج للفكر الغربي ·

فالتربية في معاجم اللغة العربية مأخوذة من « الرب » وهو انشاء الشيء حالا بعد حال الى حد التمام · (١)

وقال الاصمعي : ربيته فانا أربه وربيته فانا أربيه كلها بمعنى (٢) ورب الصبي : أي أحسن القيام عليه ووليه حتى أدرك ، أي فارق الطفولية ، ورباه تربية · (٣)

وكلمة « رب » كما قال ابن فارس : تدل الراء والباء على أصول :

الاول : اصلاح الشيء والقيام عليه ·

والثاني : لزوم الشيء والاقامة عليه ·

والثالث : ضم الشيء للشيء (٤)

فكلمة التربية في أغلب مفاهيم اللغة وبخاصة القديم منها كتهذيب اللغة في القرنين الثالث والرابع الهجريين ومقاييس اللغة في القرن الرابع الهجري وغيرهما تدل على المعنى الذي نفهمه الآن من التربية ، فالتربية اصلاح ولزوم واقامة على عمل من راشد في متعلم وضم وسائل الى وسائل من أجل الوصول بهذا المتعلم الى النضج والاكتمال ·

أما كلمة التربية في المعاجم الاجنبية فلا نستطيع أن نتعرف عليها بهذا المعنى لا في القرن الثالث ولا الرابع الهجري ، وانما في القرن العاشر الهجري ، أي بعد ورودها في معاجم اللغة العربية بستة قرون ·

ففي معجم : هاتزفيلد	Hatsfeld
ودارمستر	Darmstar
وتوماس	Thomas

يذكر ان كلمة التربية لا نقع عليها في اللغة الفرنسية قبل عام ١٥٢٧ م الموافق ٩٣٤ هـ ، ونحن نجدها في جميع المعاجم منذ عام ١٥٤٩ م « الموافق ٩٥٦ هـ » كما نجدها في المعجم الفرنسي اللاتيني لصاحبه روبير ايثرين Robert Etierne

حيث توجد ملقة بكلمة طعام ، ولكنها مع ذلك لم تظهر في النصوص الا نادرا ، على انها ليست من الوجهة الاشتقاقية سوى نقل عن اللاتينية ، وهو نقل قام به أصحاب النزعة الانسانية في عصر النهضة الاوروبية .

فاللغة اللاتينية كانت تستخدم الكلمة للدلالة على تربية النباتات أو الحيوانات وللدلالة على الطعام وعلى تهذيب بني البشر دون ماتفريق بين هذه الاحوال جميعها .

وفي عام ١٦٤٩ م « الموافق ١٠٤٩ هـ » لم يكن المجمع العلمي الفرنسى يعرف غير المعنى الاول لهذه الكلمة ، فلم يكن يفهم من التربية سوى تكوين النفس والجسد وكان يجعل منها ومن التعليم شيئا واحدا اذ يتصل برياضة النفس أو رياضة الجسد (٥)

وقد كثرت تعريفات التربية في العصر الحديث بحيث يمكن أن نحصرها في النقاط التالية :

ان التربية مقصورة على الجنس البشري .

وانها فعل يمارسه راشد في صغير أو جيل ناضج في جيل ناشىء .

وانها موجهة نحو هدف ينبغي بلوغه ، وان هذا الهدف لا يقتصر على اكتساب بعض الممتلكات الايجابية ، وانما يهدف الى اكتساب بعض الاستعدادات العامة التي تيسر الحصول على تلك الممتلكات ، وقد جمع رونيه أوبير هذه الملاحظة وخرج منها بتعريف للتربية هو :

« التربية : هي جملة الافعال والآثار التي يحدثها بارادته كائن انساني في كائن انساني آخر ، وفي الغالب راشد في صغير ، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن نكون لدى الكائن الصغير استعدادات منوعة تقابل الغايات التي يعد لها حين يبلغ طور النضج »

فاذا كان الانسان موضوع التربية ، فان التربية الاسلامية تنفرد بأنها نظرت الى الانسان والى الكون والحياة نظرة هي الصواب وحدها ، دون أي نظرة أخرى لأي تربية او فلسفة ، ذلك أنها النظرة التي جاء بها وحي خالق الانسان والكون والحياة الى رسول البشرية كلها محمد صلى الله عليه وسلم .

والتربية الاسلامية تتحرك دائما نحو هدف كبير هو اعداد هذا الانسان لعبادة الله وحده ، فتهيىء له أسباب العبادة في ذاته ، وتمهد له سبل التعامل مع الكون والحياة لتكون عبادته لله سبحانه في صورتها الايجابية دون معوقات أو سلبيات ·

والتربية الاسلامية تدخل تحت هذا الهدف الكبير اهدافا اخرى جزئية ، حين تعمد الى تربية الفرد وتربية الجماعة وتربية الامة ، وتربية البشرية كلها لتستقيم بعبادة الله وحده على الصراط المستقيم صراط الله ·

وللتربية الاسلامية منطلقات تركز على الاهتمام بها في الناس وفي المجتمعات فهي تهتم بتربية روح الانسان وضميره وخلقه وعقله وبدنه لاتغفل من ذلك شيئا ولا تنميه على حساب شى آخر ، وتهتم بتربية هذا الفرد تربية اجتماعية تمكنه من التعايش الكريم مع المجتمع في ظل ماشرع الله في الاسلام من نظم وآداب ·

التربية الاسلامية ــ وهذا هدفها وتلك منطلقات عملها ــ كانت عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجده وفي سوقه ، في حضره وفي سفره ، في سلمه وفي حربه ، ومن أجل الوصول بالانسان الى هذا النمط من التربية المتكاملة أنزل الله كتابه الكريم على رسوله الامين فبلغه لهم ، ومن أجلها ألهم الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن تكون حياته في جملتها وتفصيلها تفسيرا عمليا لفلسفة الاسلام في تربية البشرية على عبادة الله وحده والالتزام بالاسلام شريعة ومنهاجا ·

ولقد وقفت فلسفات الناس من هذه التربية الاسلامية موقف التحدي والمحاربة تحاول كل منها أن تنتزع الانسان من الاسلام ، بما تزوق له وبما تبهرج عليه ، وبما ترضى به نزواته ونزعاته ، وبما تشبع به غرائزه وشهواته ، تحاول أن تنتزع من هذه التربية الاسلامية اسلوبها الراشد المتكامل في تربية الانسان والمجتمع ، فكانت لها مع الاسلام وتربيته مساجلات ومواجهات وكان لها مع المسلمين في عصور متطاولة تحديات ومنازعات ·

فماذا كان من شأن تلك الفلسفات البشرية في مواجهة التربية الاسلامية ؟

التربية الاسلامية والفلسفات التي تواجهها :

الفلسفة والتربية متلازمان يشبهان ــ على حد التعبير الشائع ــ وجهين لعملة واحدة ، فالفلسفة تحدد هدف النظام التربوي ، وترسم الطرق والوسائل التي تؤدي

الى تحقيق هذا الهدف ، بينما تقوم التربية بتعليم هذه الوسائل وتعبيد هذه الطرق واتخاذ الوسائل التي تنشر هذا الهدف وتشيعه في الناس ، فالتربية وسيلة لتحقيق هدف كبير من أهداف المجتمع التي تسهم الفلسفة في رسم خطوطها وتوضيح أبعادها ، بل التربية نظام اجتماعي نابع من فلسفة كل مجتمع ، وهذا النظام هو الصورة التطبيقية لهذه الفلسفة ، وتلك الصورة هي الصدى لفلسفة أمة من الامم والمعبرة عن روح هذه الامة وما يسودها من قيم ومثل ·

وهناك فلسفات تتنازع التربية بصفة عامة ، وكل فلسفة من هذه الفلسفات لها سلبياتها الذاتية من جانب ، ولها تحديات للمجتمعات الاسلامية من جانب آخر ، ثم هي في الجملة مواجهة للاسلام نفسه واقصاء للتربية الاسلامية عن الميدان الذي تنصهر فيه الشخصية الاسلامية وتشكل على النحو الاسلامي المنشود ·

وأهم هذه الفلسفات مانشير اليه على النحو الموجز فيما يلي :

الفلسفة الطبيعية :

وهي فلسفة تحاول أن توهم المتعلم بأن الكون كله قائم على علاقات ضرورية ثابتة ، قائمة أبدا بين هذه الظواهر الكونية ، منظمة لحركتها وسيرها ، متجاهلة النظام الالهي للكون الذي يحكم كل صغير وكبير فيه ، ويسير كل ذرة من ذراته في الاتجاه المحسوب لها لاتتعداه ولا تخرج عن اطاره ، ولا تستطيع أن تقصر عن بلوغ غايتها المرسومة لها « وكل شيء عنده بمقدار » ، و « كل يجري الى أجل مسمى » ، « بل له ماقي السموات والارض كل له قانتون » ، « وان الله كان على كل شيء حسيبا » ·

هذه الفلسفة الطبيعية تنظر الى الانسان نفسه على أنه نتيجة لبعض هذه العلائق الثابتة مع بعض أنواع هذا الكون وموجوداته ، متعامية عن خلق الله سبحانه لهذا الانسان وفطره على هذا التنسيق ، وهدايته وترشيده بالوحي والانبياء ، الى الصراط المستقيم صراط الله الذي له ماقي السموات وما في الارض ·

هذه الفلسفة الطبيعية تتجاهل اي غايات اخلاقية يسعى الفرد الى تحقيقها . بل تصرح بأن هذه الغايات الخلقية وهم اخترعه الانسان لنفسه ، أو أوحت به الطبيعة اليه زيادة في تضليله وخداعه ·

بهذه الفلسفة وبتلك المبادىء والغايات والوسائل نادى « بيكون » و « شوبنهو » و « جان جاك روسو » وغيرهم، وفي كل مقولة من مقولات هذه الفلسفة تحد صارخ للاسلام وشريعته ، ولنظرة الاسلام الى الكون والحياة والانسان ، وللغاية الكبرى التي تراها التربية الاسلامية وهي تنشئة أجيال تحسن عبادة الله وتحقق بذلك لنفسها الامن في الدنيا والآخرة ، وهذه الفلسفة تكذيب صريح للوحي وابطال للنبوات والكتب السماوية كلها ·

وثاني هذه الفلسفات هي : الفلسفة الاجتماعية :

وهي فلسفة تحاول ايهام المتعلم أن الانسان ليس كما خلقته الطبيعة ـ كما تزعم الفلسفة الطبيعية ـ وانما الانسان كما يريد المجتمع أن يكون ، فالانسان في مفاهيم هذه الفلسفة خاضع لنظم المجتمع لايستطيع أن يفلت منها ، ومشدود الى هذه التصورات الاجتماعية التي اخترعها انسان مثله ، مشدود اليها لايملك معها أن يكون وخاضع للدين ونظمه فيما يطلقون عليه الرون الوسطى ، وخاضع للقوميات الدينية في العصر الحديث ، وخاضع للنظم الاقتصادية والسياسية والصناعية في الوقت الحاضر ·

وخاضع للقوميات الدينية في العصر الحديث ·

وخاضع للنظم الاقتصادية والسياسية والصناعية في الوقت الحاضر ·

فخضوع الانسان في ظل هذه الفلسفة أمر محتوم ، وفي ذلك الخضوع حرب لكل عمل بناء يمكن أن يهتدي اليه عقل عاقل من الناس، لان ذلك عندهم علو وهوى يجب أن يحارب وأن يصد ، ومعنى ذلك أن هذه الفلسفة تريد قهر الفرد وتحويله الى تابع ذليل لنظم ابتكرها انسان مثله ، وان كانت تحاول أن تزيف على الانسان هذا القهر وتلك التبعية بأغلفة خادعة من الاسرة والمدنية والمجتمع والقومية وغيرها ، وهي بذلك تتجاهل الفطرة البشرية التي فطر الله عليها عباده ، فضلا عن تجاهلها لحقيقة أولية وهي أن هذا الانسان ماينبغي أن يكون تابعا أو خاضعا الا لنظام صنعه بارئه وخالقه سبحانه ·

بهذه الفلسفة وبتلك المفاهيم ارتفعت أصوات « دوركهايم » و « لوسيان فيفر » و « كورنو » وغيرهم ، وكل مافي هذه الفلسفة يناقض طبيعة الانسان ويتنكر

لفطرته ويجره بقيود صارمة الى تبعية ذليلة لمنهج صنعه القاصرون من الناس الخطاءون بمنطق بشريتهم ، وذلك تحد سافر لتبعية الانسان لمنهج الله وشرعه وذلك الدين الذي أتمه الله وأكمله ورضيه للبشرية كلها دينا ، وهو في الوقت نفسه صرف للتربية الاسلامية عن وجهتها في جعل الناس عبيدا لله لا للناس ٠

وثالث هذه الفلسفات هي : الفلسفة الخلقية ٠

وهي في أبسط صورة لها وأقربها الى الاذهان مزج بين التكوين العقلي والتكوين الاجتماعي للانسان ، فهي تنادي بأن التكوين الخلقي للانسان لايتم الا بعد أن يتم التكوين العقلاني العملي له ، وهذا التكوين الخلقي – عندهم – مناقض لطبيعة الانسان الواقعية ، بينما هو – عندهم – ملائم لطبيعته المثالية ، فهي فلسفة تتصور الانسان مطحونا أبدا في هذا الصراع الرهيب بين واقعياته المفروضة ومثالياته المنشودة ، وكأن الانسان قد كتب عليه هذا الصراع الى أبد الآبدين ٠

وهذه الفلسفة بهذه المفاهيم لاتقيم وزنا أدنى وزن للقيم الخلقية التي شرعها الله للناس عن طريق الوحي والرسالات ، ولاتهتم كذلك بالتعرف الدقيق على طبيعة الانسان وقدراته البشرية المحدودة ٠

بهذه الفلسفة وبتلك الآراء تعالت صيحات : « هوبس » و « مونتيني » و « هنري غويه » وغيرهم ، وافتراض هذه الفلسفة أن الانسان في هذا الصراع المستمر مع واقعيته ومثاليته افتراض يتجاهل الاديان التي وضعت هذا الواقع في اطار من قدرة الانسان وطاقته ورسمت له الحدود والابعاد التي لايجوز له أن يتجاوزها جريا وراء ارضاء هذا الواقع ، ثم أوضحت له هذه المثاليات وطالبته بأن يجتهد ويحاول في حدود ماأتاح الله من طاقة دون صراع رهيب مضن بين الواقع والمثال ٠

هذه الفلسفة تحد واضح لفطرة الانسان وطاقته كما أفصحت عنها التربية الاسلامية وهي تنشىء الاجيال على منطق « لايكلف الله نفسا الا وسعها » وواقعية « اتقوا الله ما استطعتم » ولا تحرمه نشدان المثال الماثل في المعصوم صلى الله عليه وسلم « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » فلا صراع ولا حرب بين الواقع والمثال وانما هادفة راشدة للحياة والاحياء ورغبة مستمرة في التجويد والاتقان

والاجتهاد للوصول الى أمل الآمال وهو الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم لتتحقق بذلك سعادة الدنيا والآخرة .

ورابع هذه الفلسفات وآخرها في هذا البحث هو الفلسفة العامة .

وهي فلسفة تعنى بتربية المتعلم عن طريق الحياة نفسها ، أي التجارب التي يستمدها الانسان من الحياة والتفسير الذي يقدمه لنفسه عنها بوصفه فردا في أسرة أو واحدا من أهل مهنة أو عضوا في حزب ، أو أي جزء من أي كل ينتمي اليه .

فهي فلسفة تطالب الانسان أن يذوب في أسرته أو طائفته أو مهنته أو حزبه أو قوميته ليبقى دائما كما هو يمارس وجوده الاجتماعي فحسب، أو يمارس الجانب الخارجي من ذاته ، ذاك الجانب الذي نشأ من تكيفه المحتوم مع تلك الطائفة أو المهنة أو الحزب أو القومية التي ينتمي اليها ، أما وجوده الفردي فلا !!! أما الجانب الداخلي من ذاته فلا !!!

وليس لذلك معنى ــ في اطار تلك الفلسفة ــ الا حرمان الانسان من حريته ومن التعبير عن ذاته ، لتسحقه النظم التي تحكم طائفته أو مهنته أو حزبه أو قوميته ، وذلك نفسه مناقض لابسط حقوق الانسان ، ومخالف تماما لفطرته التي فطره الله عليها ، ومخالف لتكريم الله للانسان وتسخيره كل شيء من أجله في هذه الحياة الدنيا .

وأخطر مافي هذه الفلسفة أنها تتجاهل أن الله سبحانه قد اختار للبشر حياة خاصة ذات منهج ونظام ، وجعل لبسائط هذه الحياة اليومية حدودا وأبعادا عن طريق ماأحل له وما حرم عليه ، فليست الحياة كما يفسرها الانسان لنفسه منفردا بهذا التفسير عن الوحي الالهي ، مهما كان تابعا في ذلك لطائفة أو مهنة أو قومية ، لأن الصواب وحده هو التفسير الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لهذه الحياة التفسير الراشد المحقق للانسان سعادة الدنيا والآخرة .

وبعد : فهذه الفلسفات التي ذكرنا تتنازع التربية في عصرنا هذا ، وتعد تحديات صريحة للاجيال المسلمة التي يجب أن تنشأ في ظل منهج الاسلام والاسس التربوية المتكاملة لهذا المنهج ، وصرف لهذه الاجيال عن الاتجاه الصحيح الذي جاء به الاسلام للبشرية وهو الاستقامة على طريق الحق والخير والهدى ، نهج الشريعة

الاسلامية في كل شأن من شئون الحياة ، هذه الفلسفات تحد للفكر الاسلامي ذاته وللتربية الاسلامية التي تستهدف تكوين الفرد والجماعة في أمة تدين بالاسلام وتنطلق في الدعوة الى الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتتخذ لذلك مختلف الاساليب التي تربي عن طريقها روح الفرد وضميره وخلقه وسلوكه وعقله وبدنه ، وتربى بها الجماعة البشرية كلها لتستقيم على الدين القيم دين الاسلام ٠

هذه الفلسفات تحديات للتربية الاسلامية بمفهومها الذي بينا وبهدفها الكبير الذي أوضحنا ، وهي بمنهاجها ونظمها ومفاهيمها جزء من مخطط كبير دبر بمهارة واحكام ليصرف الناس عن الاسلام وتربيته ، ويحولهم الى أتباع للتربية الغربية التي تستهدف اقصاء الاسلام عن حياة الناس ، وابعاد الشريعة الاسلامية عن أن تكون منهجا ونظاما للعالمين ٠

التربية الاسلامية والتيارات المعادية للاسلام :

التيارات المعادية للاسلام كثيرة ، وهي تتزايد يوما بعد يوم ، وليس في هذا مايدعو الى دهشة أو استغراب لأن الاسلام دين الحق ، وأعداء الحق كثرة في أي زمان وفي أي مكان ٠

هذه التيارات تمثلت أولا في اليهودية أو الصهيونية ثم في الصليبية ، وعن الصليبية تفرعت تيارات خبيثة ضارية هي الاستشراق والتبشير والاستعمار على هذا الترتيب ، ثم تولدت عنها أو واكبتها تيارات أخرى أشد افسادا أخذت شكل الفلسفات والنظريات والمذاهب كالديمقراطية والشيوعية والاشتراكية وغيرها ٠

وليس من هدفنا في هذا البحث أن نتحدث عن كل تيار من هذه التيارات حديثا مفصلا يتناول أهدافه ووسائله وخططه ، ومبادئه لأن لذلك مجالات أخرى ، ولكن هدفي في هذا البحث أن أتحدث عن تحديات هذه التيارات للشريعة الاسلامية بعامة ، وللتربية الاسلامية على وجه الخصوص ٠

ولست بحاجة الى أن أؤكد أن السيطرة على التربية أهدافها ومناهجها سيطرة على مستقبل الامة فضلا عن حاضرها ، ثم هو في الوقت نفسه تبعية ذليلة تدفع لها الامم التابعة أبهظ الاثمان ، أدرك هذا أعداء الاسلام ووعوه حق الوعي ، فما دخلوا

بلدا من بلدان العالم الاسلامي الا كانت ضربتهم الاولى لسياسة التعليم فيه ، ولأهداف التربية ونظمها ومناهجها ، يشهد بذلك تاريخ هؤلاء الاعداء في كل بلد سيطروا عليه .

وليس خافيا على أحد أن حركة الاستشراق استهدفت التعرف على الارض والبشر ثم أعقبتها حركة التبشير فهزت ثقة الناس فيما يعتقدون وأذابت في نفوس كثيرين صلابة المؤمن في دينه وتمسكه بمنهج الاسلام في حياته ، ثم جاء الاستعمار بجيوشه وأسلحته المنظورة وغير المنظورة ، وبحقده واصراره على استغلال خيرات البلاد وامتصاص دماء الشعوب ، فكانت خطة محكمة للقضاء على العالم الاسلامي .

عندما استولى أعداء الاسلام ــ المستعمرون في زعمهم والمخربون في الواقع ــ في هذين القرنين الاخيرين من الزمان على معظم بلدان العالم الاسلامي ، كانت أغلب هذه البلدان تمزج في تربيتها لأبنائها ــ في دور التعليم من مدارس وكتاتيب ومساجد ومعاهد ــ بين المعلومات والحقائق الاسلامية وبين المعلومات والحقائق التي تتطلبها الفاهم لدينه العامل بمقتضاه تكوين الانسان القادر على ممارسته الحياة بالعمل الفاهم لدينه العامل بمقتضاه تكوين الانسان القادر على ممارسته الحياة بالعمل الشريف والكسب الحلال ، فكانت الحرفة الى جانب التفقه في الدين ، ولقد تخرجت في هذه الدور أجيال وأجيال ، عجزت عن ممارسة الحياة الشريفة بسبب قصور في مناهج التعليم أو نقص في وسائل التربية ، بل كانت كلمة « المعلم » تطلق بالاولية على من يعلم الحرفة أو المهنة ، وكان المتعلم يقصد الى تلك الحرفة صغيرا في سن الصبا فكان يسمى « صبيا » في مهنته حتى يتقنها ، ولم تعجز وسائل التعليم آنذاك عن سد حاجات المجتمع وتحقيق اكتفائه ، وكان في الامكان ان تتطور هذه الدور والمدارس والمعاهد بتطور المجتمع وتكاثر الناس بحيث تظل دائما قادرة على تربية الفرد المسلم الملتزم بالاسلام في سلوكه والمعد لكسب رزقه بطريق شريف والمتجاوب مع متطلبات دينه في ظروف صحية من حيث نفسه وعقله وخلقه .

فلما أصبح الامر في هذه البلدان الاسلامية الى أعداء الاسلام ممن سموا أنفسهم بالمستعمرين وجهوا ضربتهم الى هذا التعليم فأفسدوه وعطلوا أهم أهدافه ــ وهو تكوين المسلم الفاهم لدينه العامل بمقتضى هذا الفهم ــ واستبدلوا به نظمهم ووسائل تربيتهم التي تستهدف ماتستهدف من غايات الا تكوين المسلم الفاهم العامل ثم أغرقوا مناهج التعليم بكل ماهو مخالف للاسلام من أفكار وفلسفات وما تشيعه تلك الافكار والفلسفات من قيم أخلاقية لاتتفق مع الاسلام .

وكان أكبر أهدافهم اقتلاع جذور الاسلام من عقول المتعلمين ونفوسهم بتشويه الاسلام وتحريف تاريخه وطمس معالمه واهمال مفاخره ، فشنوا حربا ضارية على دور التعليم ـ والامر حينئذ بأيديهم ـ يغيرون جوهرها وهدفها ويخضعون مناهجها لما يريدون ، وما استعصى عليهم الا القليل كالازهر وجامع القرويين وجامع الزيتونة وجامع الامويين ، فكادوا لهذه المعاهد ولمن يتخرجون منها وأزروا بهم وبما يعلمون ويتعلمون وحاربوهم في أعمالهم وأرزاقهم وعزلوهم الى حد كبير عن مواكبة الحياة المتغيرة أبدا واستعانوا في سبيل الوصول الى ذلك بأحط الوسائل وأخبث الاساليب من الاقلام المأجورة والصحف العميلة والعقول المضللة وأدعياء العلم الذين أصبحت بيدهم مقاليد الامور • وليست حربهم للازهر ببعيدة عن الاذهان ، فقد جندوا لها أقلام الكتاب •

واذا كان الازهر يقوم على العناية بدراسة العلوم الاسلامية وعلوم اللغة العربية فلتوجه له الضربات فيما يعتنى به ، ويحمل طه حسين عبء الحملة على الازهر والازهريين ويصبح لكلامه وزنه لأن طه حسين تعلم في الازهر وأوشك أن يحمل أعلى اجازاته العلمية فيؤلف طه حسين كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ويخص الازهر واللغة العربية التي يقوم على العناية بها والعلوم الاسلامية بنصيب من كتابه ، فيقول عن قيام المتخرجين في الازهر بتعليم اللغة العربية : « فالذين يزعمون أننا نتعلم العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب ، ثم يرتبون على ذلك مايرتبون من النتائج العلمية والعملية انما يخدعون الناس ، وليس ينبغي أن تقوم حياة الامم على الخداع فان اللغة العربية ليست ملكا لرجال الدين (٦) يؤمنون وحدهم بها ويقومون وحدهم من دونها ويتصرفون فيها ، لكنها ملك للذين يتكلمونها جميعا من الامم والاجيال ، وكل فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التي تبيح له هذا التصرف ، واذن فمن السخف ان يظن أن تعليم اللغة العربية وقف على الازهر الشريف والازهريين ، وعلى المدارس والمعاهد التي تتصل بينها وبين الازهريين أسباب طوال أو قصار ، هذا سخف لأن الازهر لايستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية جميعا وفيهم المسلم وغير المسلم » (٧)

وتلك ـ في تقديري ـ حملة على اللغة العربية ، بل هي حملة على الاسلام نفسه ، حين يدعي الكاتب أن اللغة العربية ليست لغة الدين فحسب ، وأن من الخداع أن يقال أنها لغة الدين ، فاللغة العربية من يوم اختارها الله سبحانه لينزل بها كتابه الكريم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، أصبحت لغة الدين الاسلامي

دون جدال او خصام ، ونحن المسلمين لا نتعلمها ولا نعلمها الا من أجل هذا الدين ، و الا فان في لغات غيرها غنى عنها ، فالخداع الحقيقي هو الادعاء بأنها ليست لغة الدين الاسلامي ، ان كل مايتصل بهذه اللغة من علم وفن وتاريخ وأدب انما يتعلمه المسلم ويعلمه لكي يفهم القرآن الكريم دستور حياة المسلمين في كل زمان ومكان ٠

أما الربط بين تعليم اللغة العربية وبين الازهر والازهريين فأمر يعرف الكاتب أبعاده ودوافعه وأسراره ، وأما القول بأن الازهر يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية من المسلمين وغير المسلمين فهو السخف الحقيقي من الكاتب نفسه !!

تلك جولة مع اللغة العربية لغة القرآن الكريم وهي أحد جناحي الازهر الذي يرفرف بهما في سماء العالم الاسلامي ، أما الجناح الثاني وهو علوم الشريعة الاسلامية فقد كانت له مع الاعداء وأتباعهم جولة ثانية تستهدف قطعه أو قص ريشه ، فالكاتب نفسه صاحب كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » يدعو الى انشاء قسم من كلية الآداب للدراسات الاسلامية ومعهد ملحق بها يعتمد فيه على ما كتبه المستشرقون عن الاسلام حيث يقول : « كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الاوروبية ، وهي تعرف جهود المستشرقين في الدراسات الاسلامية (٨) ومن الحق عليها أن تأخذ بنصيبها في هذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التي ترى لنفسها زعامة البلاد الاسلامية وبين جهود الامم الاوروبية » (٩)

واذا كان طه حسين قد قال هذا أيام كان للانجليز نفوذ في مصر ، فان كاتبا آخر ينادي بمثل مانادى به طه حسين بعد تخلص مصر من نفوذ الانجليز ، فيتهم الدراسات الاسلامية في الازهر بأنها عقيمة تقوم على مناهج القرون الوسطى ، فيقول : « ٠٠ فقد بدأ القرن التاسع عشر والثقافة مركزة في الازهر في فروع الدراسة الاسلامية التي كانت تدرس على مناهج القرون الوسطى ، والادب مقصور على الآفاق الضيقة ٠٠ ثم اتجه النشاط حينا في أواسط هذا القرن الى حركة الطباعة ونشر الكتب المترجمة عن الغرب في مختلف العلوم ، وبدأت ثروة اللغة العربية تزداد بهذه التراجم ، وبدأت عقول المصريين تتنسم أرواحا جديدة من أدب الغرب وثقافته » (١٠)

هذا العداء للاسلام ولغته وعلومه نستطيع أن ندركه بعمق ووضوح عند كلام بعض المستشرقين الراغبين في أن تستولي أوربا على بلاد المسلمين ، نجد ذلك في كلام هـ ٠ ج ويلز حين يقول : « كان نفس ارتشاح الفكرات الغربية وأساليبها وتطبيقاتها الذي ترتب عليه تقويض مدينة الصين العتيقة يعمل عمله في كل أرجاء

الشرق الادنى بقوة تتزايد كل يوم منذ الحرب العظمى ، اذ يلوح أن ذلك السبات الطويل المنطوي على القدرية وعدم التسامح الذي ران على الاسلام قد أخذ يقترب من نهايته ، فان العالم الاسلامي يستعمل الآن الصحف والتلغراف واللاسلكي والتطبيقات التعليمية العصرية والدعاية العصرية ، وقد أسلفنا عليك شيئا عن نهوض التركي بعد هزيمته ، وعن وحدة العرب المؤقتة ، وانا لنلحظ في ايران اشتدادا في مقاومة الاسلام لاستغلال الغرب المجرد .. ثم يستطرد ويلز في حديثه فيقول : شرعت الدول حتى الفرنسيون منهم والايطاليون ـ وهم أشد الناس وعيا قوميا ـ يدركون أن الامل الوحيد للمحافظة على السيادة الاوروبية على العالم الاسلامي ينحصر في التعاون العلني الشريف الذي ينعقد بين كل الدول الاوروبية المختصة » (١١)

وكلام ويلز واضح الدلالة في أن العالم الاسلامي قد أخذ يستعمل التطبيقات التعليمية العصرية ، وأن ارتشاح الفكر الغربي يؤدي عمله في المسلمين عن طريق هذه المؤسسات التربوية الغربية المعادية للاسلام .

ويؤكد هذا المعنى المستشرق « جب » عندما يتحدث عن أهمية التعليم ونظمه ومناهجه في طمس معالم الشخصية الاسلامية لتحل محلها الشخصية الغربية ، فيقول : « ... والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب Westernizalon **أي تأثير** الغرب فكره وحضارته في المسلمين ـ هو أن نتبين الى أي حد يجري التعليم على الاسلوب الغربي وعلى المبادىء الغربية وعلى التفكير الغربي ، والاساس الاول في كل ذلك أن يجري التعليم على الاسلوب الغربي وعلى المبادىء الغربية وعلى التفكير الغربي ، هذا هو السبيل الوحيد لاسبيل غيره » (١٢)

هكذا يخطط المستشرقون للقضاء على الشخصية الاسلامية بنظم التربية ممهدين بذلك لسيطرة بلادهم على العالم الاسلامي وهكذا يتجاوب معهم ويساعدهم في الوصول الى أغراضهم بعض المسلمين !!

التيارات المعادية للاسلام تغزو لغة القرآن :

اللغة هي فكر الامة ووجدانها ، ولسان أمة من الامم انما هو وسيلة التعبير الكلامية عن فكر هذه الامة وعواطفها ، والحرب الحقيقية لامة من الامم تبدأ بحرب لغتها لما في ذلك من قضاء على تاريخها وحضارتها ومسخ حاضرها ومستقبلها .

واللغة العربية هي وعاء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فهي لذلك وعاء فكر الامة الاسلامية في كل مكان وزمان ، وحرب هذه اللغة وشن الغارات عليها حرب للقرآن الكريم وللشريعة الاسلامية ، وتلك الحرب هدف كل عدو للامة الاسلامية قديما وحديثا ، يدرك أعداؤنا هذا حق الادراك ، ولذلك وجهوا الى لغة القرآن أعنف حرب وأضراها ، فنجحوا في غزو فكر الامة الاسلامية بمقدار مانجحوا في حرب لغة القرآن ·

فرض عدونا لغاته على مناهج التعليم في بلاد المسلمين فزاحم بذلك لغة القرآن منذ المرحلة الاولى أو المرحلة المتوسطة من مراحل التعليم ، ونجح عدونا في أن يفقد بعض أبناء الامة الاسلامية اعتزازهم باللغة العربية ، فعزل علماءها وفقهاءها عن كثير من المناصب القيادية السياسية في الامة ، ووصف اللغة العربية بالجمود والغلظة ووصفها بالتخلف وادعى أنها أصعب اللغات نحوا وتصريفا وتعلما وفهما ·

فعل العدو كل ذلك بلغتنا وهو يدرك قيمة اللغة في بعث كيان الامة وحملها على التحرر من قيوده وأغلاله ، ورسم لذلك الخطط ووضع المناهج وحدد الوسائل يدرك العدو ذلك كله وندركه نحن ، ويمتلىء التاريخ بالشواهد والبراهين على قيمة اللغة في بعث كيان الامم ·

فالامة التشيكية انبعثت حرة مستقلة عن طريق عنايتها بلغتها ــ على الرغم من محاولة الالمان والنمساويين القضاء عليها واعتبارها لغة أقطاظ دعما لاحتلالهم للاراضي التشيكية ورغبة في أن يبقى هذا الاحتلال أطول فترة من الزمن ــ فقد تمسك التشيكيون بلغتهم وعنوا بها وبأدبها وتاريخها ، فانبعثت في النفوس روح الحماس لماضيهم وامتلأت قلوبهم كراهية لمستعمريهم بما تركته كلمات الادباء والشعراء في عواطفهم ومشاعرهم ، فقاوموا أعداءهم ونالوا استقلالهم ·

والنرويجيون حينما تمسكوا بلغتهم في مواجهة الاحتلال الدانمركي والسويدي لبلادهم ، ورفضوا رفضا قاطعا لغة هؤلاء الاعداء ــ على الرغم من التقارب الشديد بين تلك اللغات ــ عندئذ عاشوا أحرارا مستقلين ، لم يلوثوا ألسنتهم بلغة عدوهم الذي يذكرهم بالذل والهوان ·

وفي فرنسا قامت ضجة اجتمعت لها بعض المجالس النيابية واشتركت فيها الصحافة ، وتعهدت صحيفة « لموند » بأن تقيم الدنيا وتقعدها من أجل كلمات

أوروبية غير فرنسية تسربت الى اللغة الفرنسية ، خاف الفرنسيون من ذلك على لغتهم أولا وعلى أمتهم ثانيا .

وفي ألمانيا – في عهد النازيين – أمر الالمان على أن يضعوا كلمات ألمانية موضع بعض الكلمات اللاتينية اليونانية التي كانت مستعملة ، وقد أكد « فيخته » كاتب ألمانيا المعروف : أن اللغة الالمانية قادرة على رفع معنويات الامة واعادة وحدتها وتوطيد أركانها ، بعد أن كانت جيوش نابليون قد جعلت من ألمانيا مايقرب من ثلاثين دويلة .

تلك شواهد من التاريخ تؤكد أهمية اللغة في بعث روح الامة وشحذ اعتزازها بشخصيتها فما بالنا بلغتنا العربية لغة القرآن ؟ أي قدرة لها وهي لغة دستورنا على أن تجعل منا أمة ترفض كل الوان التبعية ؟ العجب عندي لاينقضي من أن عدونا يمضي في حرب لغتنا بتلك الضراوة ثم يجد من أبناء اللغة ومن بعض المؤسسات المنوط بها حفظ اللغة من يستجيبون له ويرددون باطله فيكونون بذلك حربا على لغتهم وأمتهم ودينهم .

وقد كان لعدونا في حرب لغة القرآن وسائل وأساليب خبيثة هدامة من أبرزها :

أ – الدعوة الى اللهجات العامية في المنطقة العربية .

ب – الدعوة الى الادب القومي واحياء النزعات الاقليمية .

جـ – العمل على تشجيع اللغات الاجنبية في المنطقة العربية .

كل ذلك بقصد اهمال اللغة العربية وصرف المسلمين والعرب عنها ، ولنتحدث عن هذه الوسائل :

الدعوة الى اللهجات العامية في المنطقة العربية :

من أساليب أعدائنا في حرب لغة القرآن الدعوة الى استخدام العامية واللهجات الاقليمية حينا ، والدعوة الى استخدام الاحرف اللاتينية بدل الاحرف العربية حينا آخر ، ولقد ماتت فكرة استخدام الاحرف اللاتينية بدل الاحرف العربية ، ولكن

الدعوة الى العامية وجدت الانصار والمؤيدين ، ولايسعنا هنا أن نعرض للقضية من بذورها (١٣) ولكننا نتحدث عنها من خلال مالقيته من تأييد من لم نكن نتوهم أن يؤيدوها ، وهم بعض أعضاء مجامع اللغة العربية الذين يفترض فيهم أنهم حماة الفصحى والذائدون عنها في كل مجال !!

ففي المؤتمر الاول للمجامع اللغوية العلمية الذي عقد في دمشق سنة ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م والذي حضره وفد يمثل مجمع اللغة العربية في القاهرة ، ووفد من المجمع العلمي العراقي ، ووفد من المجمع العلمي العربي في دمشق ، ووفد يمثل الامانة العامة للجامعة العربية ومندوب يمثل اليونسكو ومراقبون يمثلون الاردن ، والسعودية وليبيا ولبنان ، وكان هدف المؤتمر بحث شئون اللغة العربية ، ولكن بعض أعضاء هذا المؤتمر دعوا الى احياء اللغة العامية والى تبديل الخط العربي والى تغيير قواعد النحو والصرف والبلاغة ، وقد نشرت الجامعة العربية محاضر جلسات هذ المؤتمر وكان مما جاء فيها :

أولا : بالنسبة للدعوة الى العامية :

١ ـ تحدث أحمد حسن الزيات ـ عضو مجمع اللغة العربية بمصر ـ فقال : « ان المحافظين من شيوخ الادب قد سيطروا على المجمع في أول نشأته ، ثم انتهى زمامه الى الكتاب والصحفيين الذين نبهوا المجمع الى أهمية العامية والى خطورة جمود اللغة بتخلفها عن مسايرة الزمن انه يسهل علينا تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية ، وان علينا أن نشرع في دراسات عاميات الاقطار العربية المختلفة لاقرار ماهو مشترك منها سواء صح في معاجم اللغة أم لم يصح !! هذا ماقاله الزيات ·

٢ ـ تحدث مندوب الاردن فقال : « ان على الجامعة العربية أن تعنى بوضع معجم يسمى معجم العامة أو غير ذلك من الاسماء يكتفى فيه بالمفردات التي يحتاج اليها من كافة مرافق الحياة وتحشد فيه أوضاع جديدة للدلالة على مستحدثات العصر الفنية المتداولة » ·

ثانيا : بالنسبة الى تغيير قواعد النحو او تيسيرها ـ كما يقولون ـ :

١ ـ تحدث ابراهيم مصطفى عن تيسير قواعد اللغة العربية بما هو مخرب للغة وقواعدها ، على نحو ماهو مشهور في دعوته تلك ، مما لانحتاج الى تسجيله هنا .

٢ ـ تحدث طه حسين في مقال له بعنوان : تيسير قواعد اللغة فنادى بقريب مما دعا اليه ابراهيم مصطفى من تغيير قواعد اللغة وقواعد الكتابة العربية .

٣ ـ تحدث منير العجلاني وانيس فريحة فنادوا بتغريب اللغة العربية بل قتلها بما أثاروا من مقترحات وآراء .

ولست بحاجة الى أن اؤكد أن تلك الدعوات هي هي نفس مانادى به أعداؤنا من المستعمرين أمثال : دانلوب وكرومر وويلككس وويلمور ، وأتباعهم من أمثال : اسكندر معلوف ورئيف أبي اللمع وفارس نمر وسلامة وموسى وغيرهم .

ومهما نسينا فلن ننسى كلمة دانلوت مستشار وزارة المعارف المصرية في ذاك الوقت حين قال :

ان صلب السياسة التعليمية في مصرهو مناهضة الثقافة الفرنسية واللغة العربية في المدارس واحلال اللغة الانجليزية محلها .

او كلمة ويلككس محرر مجلة الازهر منذ عام ١٨٩٣ م في خطبة له ألقاها في نادي الازبكية عام ١٨٩٣ عنوانها : « لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين » ، وأجاب على ذلك بقوله : « ان السر في ذلك هو تمسكهم باللغة العربية الفصحى ، وأنهم لو هجروها الى العامية لتقدموا وبرعوا .. !! »

أو كتاب ويلمور أحد القضاة الانجليز في مصر الذي سماه : « اللغة العربية في مصر » ودعا فيه الى هجر الفصحى واستعمال العامية ، وأيده في ذلك الكاتب السوري اسكندر معلوف بل نادى بتدوين العلوم والآداب بالعامية » (١٤)

أو الحملة الصحفية التي شنتها صحيفتا المقتطف والمقطم على اللغة الفصحى والتي دعت فيها الى العامية ، نعم كان للدعوة معارضون أشداء ، ومن أجل هذا لم تستطع الدعوة الى العامية أن تبلغ مداها .

ولكن : ما العامية التي يدعون اليها ؟ أهي عاميات مصر العديدة ؟ أم عاميات الجزيرة العربية المختلفة ؟ أم عاميات الجزيرة الفراتية المتباينة ؟ أم عاميات المغرب العربي المتنوعة ؟ لست أدري ٠٠٠ وكل ماأدريه من أبعاد تلك القضية وأومن بأنه الحق أن تلك حرب على لغة القرآن أي على الاسلام ·

الدعوة الى الادب القومي واحياء النزعات الاقليمية :

وهي دعوة تبدو في ظاهرها اهتماما بأدب اقليم بعينه ، ولكنها في الحقيقة تؤدي الى أن يتحول الادب العربي الى آداب عديدة وما يترتب على ذلك من تفتيت وحدة الامة الاسلامية وأبناء المنطقة العربية ·

ولقد تزعم هذه الدعوة محمد حسين هيكل في كتابيه : « ثورة الادب » و « أوقات الفراغ » ففي كتابه ثورة الادب يدعو الادباء الى ان يتجهوا في أدبهم اتجاها قوميا ، ويدعى أن مصر في عصرها الحديث أقرب الى مصر الفرعونية منها الى الامة الاسلامية ، ويستدل على ذلك بما بقي عند المصريين من عادات وتقاليد في الزواج والموت وتعظيم الناس ٠٠ وكلها أقرب الى عادات الفراعنة وتقاليدهم منها الى عادات المسلمين وتقاليدهم ، ثم يبني على هذا الزعم دعوته الى احياء التراث الفرعوني واعادة تمثله حيا في أذهان الناس ، ويبادر فينشيء عدة قصص يستوحيها من تاريخ الفراعنة مثل : قصة ايزيس ، وراعية تاهور ، وافروديت ، ويسمي تلك المحاولة أدبا قوميا ويشير الى من يقلدهم في الاهتمام بالادب القومي أو التاريخ الفرعوني وهم : « شكسبير » و « أناتول فرانس » و « برناردشو » وغيرهم (١٥)

واذا كان الدكتور هيكل قد رجع عن رأيه ذاك رجوع المعتذر ، فان ذلك لايمنعنا أن نشير الى مادعا اليه فقد أصبح جزءا من تاريخ حرب اللغة الفصحى لانستطيع اغفاله ، بل نحب هنا أن نؤكد أن تلك الدعوة وأمثالها في احياء النزعات الاقليمية كالفرعونية والفينيقية والبربرية والقوميات بأنواعها كالطورانية والعربية وغيرهما ، انما هي غزو فكري ثقافي يرمي الى تفتيت وحدة الامةالاسلامية واغراقها في الاقليميات والقوميات (١٦)

أما كتابه الثاني (أوقات الفراغ) فقد دعا فيه الى الانسلاخ من الادب العربي بعامة والى ضرورة أن يتميز الادب في كل بلد عربي بطابعه الاقليمي الخاص ، بحيث

يتميز تماما عن الادب العربي القديم ، ثم أفصح عما يريد حينما قال : ان أدبنا الحديث يجب أن يكون عنوانا لحضارتنا التي هي جزء من حضارة أوربا (١٧)

وشارك طه حسين في هذه الدعوة في كتابه : « مستقبل الثقافة في مصر » حينما ادعى أن مصر الحديثة أقرب الى اليونان منها الى العرب والمسلمين !!

المهم في نظر هؤلاء أن تنسلخ مصر عن الاسلام وكفى ٠٠ لتكن فرعونية أو يونانية أو أوربية ٠٠ المهم أن لاتكون اسلامية أو عربية !!

العمل على تشجيع اللغات الاجنبية في المنطقة العربية :

الناظر الى مناهج التعليم في معظم البلاد العربية يجد أن عددا من هذه البلدان تعطي اللغة الانجليزية أهمية لاتقل فيها عن اللغة العربية ، وبعضها تعطي هذا الاهتمام للغة الفرنسية ، وقليل منها تركز الاهتمام على اللغة العربية ٠

و لايفوتني أن أنبه الى أن اشتراط معرفة لغة أجنبية لتولي بعض الوظائف في المنطقة العربية انما هو غزو مقنع للغتنا العربية ومزاحمة لها بلغة أجنبية في مناهج تعليمنا ، وهذا لون من ألوان التبعية الفكرية والثقافية ، بل تغريب لأفكار ناشئتنا وألسنتهم منذ زمن مبكر من حياتهم التعليمية ٠

غير أني لاأحب أن يفهم من كلامي الدعوة الى مقاطعة تعلم اللغات الاجنبية ولكن لايجوز أن يكون تعلمها على حساب لغتنا الاصلية ، بحيث تكون للعربية المكانة الاولى في المنطقة العربية وفي العالم الاسلامي ماأمكن ذلك ٠

وما أحوجني وأنا أتحدث عن أعداء اللغة العربية من العرب أن أذكرهم بكلمة لكاتب اسباني قديم (١٨) رأى اقبال قومه على تعلم اللغة العربية في زمن « عبد الرحمن الداخل » ، مما دعاهم الى هجر اللاتينية ، فراعه ذلك فكتب يقول : « ان أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الادب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها ، لقد ساء ذلك بعض كبار الاسبان فقال : ان اخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها ، بل لاقتباس الاسلوب

العربي الفصيح ، فأين اليوم من رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الاناجيل وصحف الرسل والانبياء ؟ واأسفاه !! ان الجيل الناشىء من المسيحيين الاذكياء لايحسنون أدبا أو لغة غير الادب العربي ، ويجمعون منه المكتبات الكبيرة بأغلى الاثمان ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية ، بينما هم حينما يسمعون بالكتب المسيحية يأنفون من الاصغاء اليها محتجين بأنها شيء لايستحق منهم مؤونة الالتفات ، فياللأسى ، ان المسيحيين قد نسوا لغتهم فلا نكاد نجد فيهم اليوم واحدا في كل ألف يكتب بها خطابا الى صديق ، أما لغة العرب فما اكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب » (١٩)

أنا أهدي هذه الكلمات بغير تعليق ولا تفسير للعرب الذين يحاربون اللغة العربية وأحب أن أضع هذه الكلمات بجوار كلمات لطه حسين عميد الادب العربي يحاول بها أن يجعل من اللغة العربية لغة طقوس لاصلة لها بالحياة اذ يقول : « وفي الارض أمم متدينة كما يقولون ، وليست أقل منا ايثارا لدينها ولا احتفاظا به ولا حرصا عليه ، ولكنها تقبل في غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ، ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة ، وتؤدي فيها صلواتها ، فاللاتينية مثلا هي اللغة الدينية لفريق من النصارى ، واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر ، والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث ، والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع ، وبين المسلمين أنفسهم أمم لاتتكلم العربية ولا تفهمها ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هي العربية ، ومن المحقق أنها ليست أقل منا ايمانا بالاسلام واكبارا له وذيادا عنه وحرصا عليه (٢٠)

أنا أدع المقارنة بين الكلمتين للقارىء وأدع له أن يستنتج منهما مايشاء .

سلبيات الغزو الفكري والتيارات المعادية للاسلام في التربية :

عند النظرة المتأملة المحايدة للتربية في العالم الاسلامي ، لايسعنا أن نسلم بأن هذه التربية مناهجها وخططها وأهدافها ومعاهدها ومدارها والقائمين عليها ، قد وقعوا تحت تأثير هذا الغزو الفكري وانجرفوا ـ الا قليلا ممن عصم الله ـ في تلك التيارات المعادية للاسلام ، هذه مسلمة يعترف بها كل منصف من الباحثين .

والمسلمة الثانية : أن سيطرة النظم الغربية والنظريات التربوية الوافدة على العالم الاسلامي من أعدائه ، هذه السيطرة قد تركت في التعليم والمتعلمين آثارها ، وكثير من هذه الآثار يعد من أبرز السلبيات التي أحاطت بالمجتمعات الاسلامية في أغلب بلدان العالم الاسلامي ·

وما أحب أن أنهي هذا البحث دون أن أرصد بعض هذه السلبيات التي تركها الغزو الفكري للتربية في البلدان الاسلامية ، وبخاصة في المنطقة العربية ·

- فمن أبرز سلبيات هذا الغزو الفكري للتربية أن نشأت أجيال من المتعلمين أعطت ولاءها كله أو أغلبه للثقافة الغربية والحضارة الغربية ، وأسلمت عقولها لمعطيات تلك الثقافة مبهورة مشدودة اليها ، فكان ذلك سببا في بعد هذه الاجيال عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعن روح الثقافة الاسلامية والحضارة الاسلامية ، فاصبحت هذه الاجيال تجهل دينها وتتخبط في كثير من مسائله وقضاياه ، وان نظرة في مناهج مادة التربية الدينية ـ كما تسميها بعض البلاد العربية ، أو التربية الاسلامية كما تسميها بلاد أخرى ـ لتدل دلالة واضحة على أن الاهتمام الاول ليس متجها الى علوم الاسلام النظرية ولا التطبيقية الا في القليل من تلك البلاد ·

- ومن سلبيات هذا الغزو الفكري للتربية ، أن تكونت لدى بعض الدارسين والباحثين والذين أتموا دراساتهم الجامعية ، أفكار معادية للاسلام ، أدت اليها مناهج التربية الغازية المعادية ·

أولا : الادعاء بأن التمسك بالاسلام والعمل بمقتضى شريعته نوع من التعصب ولون من ألوان التجاهل لغير المسلمين في المجتمعات الاسلامية ، وهي فكرة خبيثة استفاد منها أعداؤنا المروجون لها فائدة مزدوجة ، فمن جانب منها عطلوا التمسك بالشريعة ونظمها وآدابها لتحل محلها القوانين الوضعية ومن الجانب الثاني عدت بعض الدول المعادية على بعض الدول الاسلامية تحتل أرضها بحجة حماية الاقليات غير المسلمة في البلدان الاسلامية ·

ثانيا : الادعاء بأن الدين الاسلامي دين ناسب العصر الذي جاء فيه والبيئة التي عاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعنى ذلك أنه دين محلي اقليمي وأنه يعجز عن تلبية حاجات البشرية في كل زمان ومكان ، الامر الذي يتعارض تماما مع عالمية هذا الدين وكماله وختمه لسائر الاديان .

ثالثا : الادعاء بأن التدين من الاعمال الشخصية الفردية الخاصة بالانسان في ذاته منفردا عن الجماعة ، ومعنى ذلك أن الدين الاسلامي – في زعمهم – لا صلة له بالجماعات البشرية في نظمها الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو الاخلاقية ، وتأسيسا على هذه الفرية وامتداد لباطلها ألف بعض الغافلين كتبا وكتبوا بحوثا تؤكد عزل الاسلام عن الحكم والسياسة والولاية ، وراجت هذه الكتب والبحوث عند أعدائنا حتى ترجموها الى لغات عديدة وزينوا للناس قراءتها والاخذ بما فيها .

رابعا : الادعاء بأن اقامة الحدود الشرعية تتضمن قسوة ووحشية مما ترتب عليه أن تحل النظم الوضعية في عقاب المجرمين محل الشريعة الاسلامية ،فتعطلت في كثير من بلدان العالم الاسلامي حدود الله ، وارتكست المجتمعات في تيارات من الجرائم والنظم التي تحمي المجرمين أو تعطف عليهم أو تدخلهم المصحات .

● ومن سلبيات الغزو الفكري للتربية أن حدث الاختلاط بين البنين والبنات في معظم بلدان العالم الاسلامي في المرحلة الابتدائية من مراحل التعليم ، وفي المرحلتين المتوسطة والثانوية في بعضها ، وفي المرحلة الجامعية في أغلبها .

وقد ترتب على هذا الاختلاط ماترتب من الانسلاخ من أدب الاسلام وخلقه في صلة الرجل بالمرأة ، مما أدى الى مزيد من الاضرار الاجتماعية والنفسية والخلقية ،

وهو أمر أدى الى شيوع الجرائم من جانب ، والى تقبل الحركات الهدامة للاخلاق من جانب ، والى الانحراف والالحاد والاستهزاء بالدين من جانب ثالث ، وشاعت في المجتمعات الاسلامية الدعوات المستأصلة لأخلاق المسلمين كالدعوة الى سفور المرأة ومخالطتها للرجال وابتذالها في الاعمال وتحويلها عن وظيفتها الاولى وهي الزوجية والامومة ، وما ترتب على ذلك من دعوة الى تحديد النسل أو تنظيمه لأن الام لم تعد متفرغة لأبنائها ·

● ومن سلبيات الغزو الفكري للتربية أن ظهرت في العالم الاسلامي دعوات اقليمية قومية تستهدف تفتيت وحدة المسلمين واذهاب ريحهم ، ودعوات الى اشتراكية أو شيوعية تستهدف خلع الاسلام من حياة المسلمين لتحل محله فتغرق العالم الاسلامي في متاهات من الصراع المذهبي ، وفي ظلمات من النظم والنظريات الفاشلة العاجزة حتى في بلادها من أن تحقق للناس سعادة أدنى سعادة ، والامر من قبل ومن بعد لا يقوم الا على العداء للاسلام والمسلمين ·

كلمة ختام :

تلك صورة مجملة للتربية في البلدان الاسلامية وهي واقعة بين عدوين لدودين الغزو الفكري للمسلمين ، والتيارات المعادية للاسلام ، آمل أن اكون قد ألقيت عليها من الضوء ما يجلي صورتها وما يعين على التعرف على ابعادها ، وما يغري الدارسين والباحثين بأن يولوها من البحث والدرس ماتستحقه من الاهتمام ، وما لم يتحه لي وقتي ولا جهدي ·

وحسبي من هذا البحث أن اكون قد وضعت علامات على الطريق والحمد لله رب العالمين ·

د :علي عبد الحليم محمود

صحيفة مراجع للبحث

١ ـ أ٠ل٠ شاتيله	الغارة على العالم الاسلامي : ترجمة محمد الخطيب ومساعد الياقي
٢ـ توماس أرنولد	الدعوة الى الاسلام ترجمة حسن ابراهيم وآخرين
٣ ـ جان مينو	القوى الخفية التي تحكم العالم : ترجمة محمد كامل حسن وآخر
٤ ـ جوستاف لوبون	حضارة العرب ترجمة : عادل زعيتر
٥ ـ جولد زيهر	مذاهب التفسير الاسلامي
٦ ـ حسن صعب	الاسلام وتحديات العصر
٧ ـ طه حسين	مستقبل الثقافة في مصر
٨ ـ عائشة عبد الرحمن	تراثنا بين ماض وحاضر
٩ ـ عباس محمود العقاد	بين الكتب والناس
١٠ ـ علي عبد الحليم محمود	نحو أدب اسلامي معاصر
١١ ـ علي عبد الحليم محمود	الدعوة الاسلامية دعوة عالمية
١٢ ـ علي عبد الحليم محمود	الغزو الفكري والتيارات المعادية للاسلام
١٣ ـ عمر فروخ ومصطفى الخالدي	التبشير والاستعمار في البلاد العربية
١٤ ـ فيليب متى	تاريخ العرب (الموجز)
١٥ ـ كارل بروكلمان	تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس وآخر

١٦ ـ كارل بروكلمان	تاريخ الادب العربي ترجمة : عبد الحليم النجار
١٧ ـ لوثروب ستودارت	حاضر العالم الاسلامي ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب أرسلان
١٨ ـ محمد البهي	الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الاوربي ٠
١٩ ـ محمد عبد الله عنان	تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة
٢٠ ـ محمد عبد الله عنان	المذاهب الاجتماعية
٢١ ـ محمد عزة دروزه	نشاة الحركة العربية الحديثة
٢٢ ـ محمد محمد حسين	الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر
٢٣ ـ محمد خلف الله	الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة
٢٤ ـ مولود قاسم	أنية وأصالة
٢٥ ـ نجيب العقيقي	المستشرقون
٢٦ ـ هـ٠أ٠ر٠ جب	المذهب المحمدي
٢٧ ـ هـ٠ج٠ويلز	معالم تاريخ الانسانية ترجمة عبد العزيز جاويد
٢٨ ـ مجموعة من المستشرقين	دائرة المعارف الاسلامية ترجمة عبد الحميد يونس وآخرين

هوامش البحث

(١) الاصفهاني : المفردات في غريب القرآن : ١٨٤

(٢) الازهري : تهذيب اللغة مادة : رب

(٣) الزبيدي : تاج العروس مادة : رب

(٤) ابن فارس : مقاييس اللغة

(٥) رونيه أوبير : التربية العامة : ٢٢

(٦) كلة (رجال الدين) تعبير كنسى مستورد ليس معروفا عند المسلمين

(٧) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ٢٣٠ ط المعارف القاهرة ١٩٤٤ م

(٨) كثير من هذ الجهود التي يشيد بها الكاتب بل معظمها يسيء الى الاسلام وتاريخه ويمتلىء بالغلط والتضليل والتشويه : انظر دائرة المعارف الاسلامية ـ وهي من عمل المستشرقين ـ في المواد : الله ، القرآن ، تفسير ، حديث ، محمد ، أصول ، الخ وانظر كذلك أعمال المستشرقين كايتاني ، جولدزيهر ، بروكلمان ، جب ، موير ، لانس جيبوم ، كراج ، مرجليوث ، نيكلسون . فنيسك ، توينبي . هـ . ج ويلز وغيرهم .

(٩) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ، فقرة ٤٩ .

(١٠) محمد خلف الله : الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ، ٥٤٠ ط مؤسسة فرانكلين القاهرة ١٩٦٢ م .

(١١) هـ. ج. ويلز : معالم تاريخ الانسانية : ١٢٢٢ ـ ١٢٢٤ ط القاهرة ١٩٥٠ م .

(١٢) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، ٢١٦/٢ .

(١٣) للمؤلف بحث بعنوان : الفصحى بين المؤيدين والمعارضين

(١٤) مجلة الهلال العدد الصادر في ١٩٠٢/٣/١٥ م

(١٥) لصاحب البحث : نحو أدب اسلامي معاصر ص ١٦٧ نشر جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ٩٦ هـ .

(١٦) ناقشت هذه القضية بتوسع في كتابي السابق : نحو أدب اسلامي معاصر .

(١٧) محمد حسين هيكل : أوقات الفراغ : ٣٥٤ ومابعدها .

(١٨) هو الكاتب الاسباني (الفارو) AL Varo في القرن التاسع الميلادي ـ الثالث الهجري تقريبا

(١٩) مولود قاسم : انية واصالة ـ من منشورات وزارة التعليم الاصلي والشئون الدينية بالجزائر ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

(٢٠) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر : ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ط المعارف ١٦٤٤ م القاهرة .